كلمات روحية للحياة

الجزء الرابع

القمص لوقا سيداروس

~~~~~~~

مهمة رئيس الملائكة ميخائيل

قيل فى سفر التثنية إن الرب دفن موسى فى الجواء (الوادى) بعد أن أراه أرض الموعد من بعيد ولم يعرف أحد قبر موسى إلى هذا اليوم (تث ٣٤ : ٦).. فقد أخفى الله جسد موسى بحسب تدبيرهِ الخاص.

ولكن ذكر القديس يهوذا الرسول فى رسالته أن رئيس جند الرب ميخائيل «خَاصَمَ إِبْلِيسَ مُحَاجًّا عَنْ جَسَدِ مُوسَى، لَمْ يَجْسُرْ أَنْ يُورِدَ حُكْمَ افْتِرَاءٍ، بَلْ قَالَ لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ».

وواضح من ذلك أن الشيطان أراد أن يعمل ضلالة عظيمة ضد تدبير الله لأنه هو مقاوم وعدو كل خير. أراد أن يُظهر جسد موسى ويحوِّل قلب شعب إسرائيل عن عبادة الله، وطاعته، ليتعلقوا بجسد موسى كنوع من عبادة البشر، إذ كان موسى عندهم هو كل رجائهم.

فلما ظهرت نية إبليس محاولاً أن يخرج جسد موسى من مكان دفنه المخفى عن عيون البشر، أوعز الله إلى ميخائيل رئيس جند الرب أن يوقف الشيطان ويتصدى له. ولما كان إبليس رئيس سلطان الهواء، الروح الذى يعمل فى أبناء المعصية – هو قوة هائلة وروح ظلمة مريع – وله قدرات فائقة إذ كان رئيساً للملائكة وأوصافه التى وصفها به الأنبياء تُنبئ عن ذلك، إذ يقول عنه إشعياء: «كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟» (١٤ : ١٢). وقال عنه حزقيال: «أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ... أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ» (٢٨ : ١٢، ١٤، ١٥).

على هذا كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل فى التصدى لإبليس مهمة غاية فى الصعوبة، توصف بأنها حرب فى السماء.

ميخائيل كاسمه "من مثل الله" يستمد قوته من خضوعه لله. بينما إبليس أو الشيطان هو كروح ظلمة مضاد لطبيعة الله الذى هو النور والساكن فى النور الذى لا يُدنى منه.
~~~~~~~

+ «بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ ، الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ» (مز ١٠٣ : ٢٠ ، ٢١).

+ «الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحًا وَخُدَّامَهُ لَهِيبَ نَارٍ» (عب ١ : ٧).

لذلك فإننا ندرك أن ميخائيل تصدى لقوة الظلمة الهائلة، أى لإبليس وجنوده ليوقف عمله ويبطل مشورته. وهذا ما عبَّر عنه سفر الرؤيا بقوله: «حَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ، وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ» (رؤ ١٢ : ٧).

وقد كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل هكذا مهمة خطيرة وصعبة جداً. ولم يستطع إبليس أن ينفذ إرادته الشريرة، بل توقف عن تقدمه بسبب قوة ميخائيل وتصديه الحاسم. ويمكننا أن نتخيل هذه المواجهة الصعبة عندما نتذكر أن ملاكاً واحداً قتل «مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ جَيْشِ سَنْحَارِيبُ» (٢مل ١٩ : ٣٥) المحاصر لأورشليم فى أيام حزقيا الملك.

فما بالك برئيس الملائكة !!؟

وقول رئيس الملائكة ميخائيل وصرخته فى الشيطان «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ» فيه لنا قدوة وسر به كيف نواجه هذا العدو، إذ نلتجئ إلى اسم الرب.. ولاسيما بعد أن نلنا نعمة البنوة وأخذنا من المسيح الإله قوة وسلطاناً على الأرواح النجسة، حتى طردها وإخراجها وغلبتها بقوة الروح القدس المعطى لنا، لأن الرب قال: «أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ» (مت ١٢ : ٢٨) وقال الرسول يعقوب: «قَاوِمُوا إِبْلِيسَ فَيَهْرُبَ مِنْكُمْ» (يع ٤ : ٧) وقال الرسول بطرس أيضاً: «قَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ» (١بط ٥ : ٩). وقال الرب أيضاً: «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩).

فليكن فى فمنا قول رئيس الملائكة «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ». نقوله الليل والنهار فى كل ما يقابلنا من حروب أو معاكسات أو فخاخ أو مضايقات أو هجمات العدو. وكان عوام (عامة) المؤمنين يقولون: "ربنا يخزيك يا شيطان". وكانوا يؤمنون إنه بمجرد رشم علامة الصليب يهرب الشيطان ويصيبه الخزى، لأن الرب يسوع سحق الشيطان بالصليب.

ثم بعد ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة لما تجسد ابن الله وظهر فى الهيئة كإنسان من أجل خلاص العالم. وصُلب على الصليب حاملاً خطية العالم كله. وأسلم الروح فى يدى الآب. طار صواب عدو الخير لما اكتشف أن الذى وُلد فى مذود وصار فى الهيئة كإنسان وصار مُجرَّباً فى كل شئ وتعب

وبكى ونام.. إلى آخر هذه الأمور، واحتمل الآلام ومات.. لم يكن سوى الأقنوم الكلمة الذى فى ذات الله والواحد مع أبيه فى الربوبية.

وعندما نزل بلاهوته المتحد بالنفس البشرية إلى الجحيم وسبى سبياً وخلص آدم وبنيه من سجن الأرواح أى قبضة إبليس. أسرع إبليس فى جنونه الشيطانى ليعمل ضلالته العظمى إذ أدرك أن المسيح لا يمكن أن يُمسكه الموت بل هو سيقوم حتماً كما قال لأنه هو هو القيامة والحياة. فراح يعمل فى فكر رؤساء كهنة اليهود لكى بكل وسيلة يخفى القيامة فأسرعوا إلى بيلاطس لكى يضبطوا قبر المخلص بأختام وعساكر. وقالوا عن الرب: «أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ... لِئَلاَّ يَأْتِيَ تَلاَمِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ: إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلاَلَةُ الأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الأُولَى» (مت ٢٧ : ٦٣ ، ٦٤).

فتصور أن الشيطان المضل والكذاب وأبو الكذاب يقول عن الرب إنه مضل وأن قيامته ضلالة.. وإنى أتعجب لشر الشرير وظلمة الظالم. فذاك الذى أسقطه كبرياؤه ليصير مثل العلى.. أحدرته أفكاره إلى أسفل السافلين.

فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة الذين انقادوا لمشورة الشيطان "عندكم جنود فاضبطوا القبر كما تعلمون". كانت هذه المحاولة اليائسة والمشورة الغبية هى آخر حصون العدو التى هدمها المسيح بقيامته. لأنه عندما أشرق نور قيامة المسيح هربت قوات الظلمة وتبددت فى الحال.

لأنه هل ممكن أن يحجز الظلام نور شمس البر؟ وهل ممكن للذى وُلد من العذراء بدون زرع بشر، الذى لم يفعل خطية، القدوس الذى بلا شر، أن تسود عليه شوكة الموت؟ وهل يُعقل أن الأزلى الأبدى تكون له نهاية أيام؟

لذلك قام المسيح من الأموات ونقض أوجاع الموت، وكسر شوكته وأنار الحياة والخلود.

فى هذه المرة أيضاً أوعز الرب لرئيس جنده الملاك ميخائيل أن ينزل، ولكن لم تكن هذه المرة كسابقتها.. فإبليس انسحق سحقاً بقيامة المسيح الإله، وشوكة الموت والظلام انكسرت إلى الأبد. وقوة المعاند تحطمت، والقيود التى كان يقيد بها النفوس ويستعبدها رجعت عليه فصار هو مقيداً ومذلولاً.

بل إله السلام وملك السلام أعطى عبيده سلطاناً على إبليس وأن يدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو.

فنزل ميخائيل بقوة لا ليواجه شيطاناً مقهوراً وقوات ظلمة فزعة فآره (هاربة)، بل ليعلن قيامة المسيح، فلما رآه الجنود وهزتهم الزلزلة صاروا كأموات وهربوا من الخوف، لذلك دحرج الحجر عن باب القبر الفارغ وجلس عليه.

وهنا العجب أن الملائكة وهم أرواح فائقة غير متجسدة.. لا يتعبون ولا يجلسون. ولكن من فرط فرح القيامة جلس ميخائيل على الحجر وبشر النسوة حاملات الطيب قائلاً: المسيح قام.

معونة الملائكة وشفاعتهم:

بسبب طبيعتهم الخيِّرة – المخلوقين عليها – فإنهم يحبون الخير ويخدمونه ويتمنونه. وعلى العكس فهم ضد الظلام والشر والخراب الذى تصنعه أرواح الظلمة فى العالم. انظر إلى الملاك الذى شفع فى أورشليم فى أيام زكريا النبى كيف قال للرب: «إِلَى مَتَى أَنْتَ لاَ تَرْحَمُ أُورُشَلِيمَ وَمُدُنَ يَهُوذَا الَّتِي غَضِبْتَ عَلَيْهَا هذِهِ السَّبْعِينَ سَنَةً؟". فأجابه الرب بكلام طيب وكلام تعزية.

والأمر المؤكد أنه لم تكن هذه هى المرة الأولى التى وقف فيها الملاك يطلب ويستعطف الله ويطلب الخير لأورشليم. إذ أن الملائكة موجودون فى حضرة الله كل حين يباركونه ويسبحونه، من أجل خيراته ومن أجل أعماله المملؤة صلاحاً. فهم بالحقيقة شفعاء طالبون الخير وكل ما هو مرضى أمام الله.

«إِنَّ السَّيِّدَ الرَّبَّ لاَ يَصْنَعُ أَمْرًا إِلاَّ وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ» (عاموس ٣ : ٧). أى أن أسرار الله وتدابير نعمته يعلنها لقديسيه. ألم يقل فى سفر التكوين: هل أُخفى عن عبدى إبراهيم ما أنا صانع؟ لذلك ليس كثيراً أن يصير القديسون شفعاء أمامه.

المعطى فبسخاء

الحياة المسيحية بحسب الإنجيل هى حياة عطاء وبذل من كل جانب، لأنها هى حياة المسيح فينا الذى بذل نفسه حتى الموت حباً فينا.

فإن كان المسيح يحيا فىَّ فحياتى كلها عطاء وكلها سخاء، بعيداً عن البخل والشُح والأنانية وتفضيل الذات على الآخرين.

والعطاء المادى هو أقل أنواع العطاء، لأن الممتلكات أشياء تفنى، لها قيمة مادية متغيرة وهى خارجة عن الذات. فأنا شئ وما أملكه شئ آخر يبقى منفصلاً عنى. أما العطاء المسيحى فهو عطاء النفس، أن يضع أحد نفسه عن أحبائه على مثال صليب المسيح الذى أحبنا إلى المنتهى.

فإن وضع الإنسان نفسه، وفرَّط فيها وكفر بذاته وسعى وراء مخلصه حاملاً الصليب، فإنه يعيش متنعماً فى ملكوت المسيح وهو بعد فى الجسد «هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ» (لو ١٧ : ٢١). وإن وُجد هذا المثال المسيحى حياً.. فلا مكان للصراعات ولا الخلافات ولا التحزبات ولا السياسات فى الكنيسة.. ولا مكان للمشاكل فى العائلة ولا انحراف ولا طغيان للمادة والطمع.. إلى آخر هذه الأمور.

العطاء الحقيقى هو حالة فيض داخلى، فحينما يمتلئ القلب يفيض. فالقلب الممتلئ حباً يفيض حباً.. الامتلاء يسبق الفيض.. الفيض بدون ملء هو نوع من الغش. فالعطاء الحقيقى يكون من ملء الروح وفيض الروح. فإن لم نحيا بالروح يكون عطاؤنا المادى بلا قيمة.

الكنيسة منذ البداية رفضت عطايا الناس غير المتقدسين، فلا تقبل عطايا من يُتاجر فى النجاسة، أو يكسب أمواله عن طريق غير مقدس.

هذه بعض الآيات الإنجيلية التى تنير الطريق وتوضح الأهداف الحقيقية:

+ «أَعْطُوا تُعْطَوْا» (لو ٦ : ٣٨).
+ «مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ» (أع ٢٠ : ٣٥).
+ «الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ» (رو ١٢ : ٨).
+ «مَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَاتِ فَبِالْبَرَكَاتِ أَيْضًا يَحْصُدُ» (٢كو ٩ : ٦).
+ «لَيْسَ أَنِّي أَطْلُبُ الْعَطِيَّةَ، بَلْ أَطْلُبُ الثَّمَرَ الْمُتَكَاثِرَ لِحِسَابِكُمْ» (فى ٤ : ١٧).
+ «فِي اخْتِبَارِ ضِيقَةٍ شَدِيدَةٍ فَاضَ وُفُورُ فَرَحِهِمْ وَفَقْرِهِمِ الْعَمِيقِ لِغِنَى سَخَائِهِمْ» (٢كو ٨ : ٢).
+ «لأَنَّهُمْ أَعْطَوْا حَسَبَ الطَّاقَةِ، أَنَا أَشْهَدُ، وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، مُلْتَمِسِينَ مِنَّا، بِطِلْبَةٍ كَثِيرَةٍ، أَنْ نَقْبَلَ النِّعْمَةَ وَشَرِكَةَ الْخِدْمَةِ الَّتِي لِلْقِدِّيسِينَ» (٢كو ٨ : ٣ ، ٤).

+ «وَلَيْسَ كَمَا رَجَوْنَا، بَلْ أَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلاً لِلرَّبِّ، وَلَنَا، بِمَشِيئَةِ اللهِ» (٢كو ٨ : ٥).

ويبدو واضحاً أن الرسل الأطهار الذين جرَّدهم الرب منذ البداية من كل ما هو مادى، وملأهم من الروح إلى كل الملء لم يطلبوا شيئاً.. بل لم يشتهوا شيئاً «فِضَّةَ أَوْ ذَهَبَ أَوْ لِبَاسَ أَحَدٍ لَمْ أَشْتَهِ» (أع ٢٠ : ٣٣). ولكن بحركة عطاء تلقائية، منذ أن حل الروح القدس وملأ كيان الكنيسة، كان «كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ حُقُول أَوْ بُيُوتٍ كَانُوا يَبِيعُونَهَا، وَيَأْتُونَ بِأَثْمَانِ الْمَبِيعَاتِ، وَيَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ» (أع ٤ : ٣٤ ، ٣٥). دون أن يطلب الرسل ذلك.

كان هذا شعوراً تلقائياً للتخلى عن الماديات، لما حصلوا على ملء الروح. والآيات توضح المنهج الروحى من ناحية الرسل ومن ناحية المؤمنين. فالمؤمنون كانوا يتوسّلون إلى الرسل أن يقبلوا العطايا، والرسل الأطهار لم يمدوا أيديهم للأخذ فوُضعت العطايا تحت أقدامهم، كانوا «يَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ».

«أَعْطُوا تُعْطَوْا»

يقول القديس يوحنا ذهبى الفم "إننا كثيراً ما نتبادل المواقع.. ففى أوقات كثيرة يأتى إلينا من يسألنا حاجة، ونكون نحن فى مكان الذى يُعطى ويُحسن إلى من يسأله، ثم فى أحيان أخرى نمد أيدينا نسأل ونطلب.. ونكون فى موضع المُستجدى المحتاج".

فإن تصرف الإنسان فى موقعه الأول تصرف السخى المُعطى، الذى لا يرد حاجة السائل. فإنه حين يكون فى وضع المحتاج من الله سيعامله بذات السخاء وبالكيل المُلَبَّد المهزوز يعطيه فى حضنه. والعكس صحيح فإن بخل الإنسان وصَدّ من يطلب إليه، فإنه حين يطلب هو تُصدُّ صلاته ولا يُستجاب لطلبه.

هذا ما عاشه القديسون فى كل جيل، لقد عرفوا الطريق إلى استجابة صلواتهم، وعرفوا كيف يستدرُّون مراحم الله، إذ صاروا رحماء و«أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ» (١تى ٦ : ١٨).

– يُحكى عن المعلم إبراهيم الجوهرى الذى كان بمثابة رئيس للوزراء.. أنه كان منقطع النظير فى سخائه، ويُذكر عنه أن شحاذاً قابله وهو خارج من منزله فى الصباح ذاهب إلى ديوان الوزارة، وطلب منه شيئاً (صدقة) فأعطاه، ثم استدار الشحاذ وقابله فى منعطف الشارع وطلب منه فأعطاه، ثم لف من شارع آخر وقابله وطلب فأعطاه.. حتى فى نهاية المشوار صرخ الشحاذ وقال: طوباك يا رجل الله، فهوذا طلبت منك هذه المرات الكثيرة ولم تضجر منى ولا أرجعتنى خائباً. فأجابه المعلم إبراهيم فى اتضاع كثير: هذا مالك يا ابنى، أعطاه الله لى لأعطيه لمن يسأل.

+ وقد تقابلت فى حياتى مع كثيرين من الأسخياء المُحبين للعطاء بسرور. والحريصون منهم كانوا يحيون حياة العطاء بحسب الإنجيل وبحسب الذى تسلموه من الأبرار الذين أرضوا الرب قبلهم. لأن كثيراً من المزالق تحيط بحياة العطاء، «مَنْ يَرْحَمُ (يعطى) الْفَقِيرَ يُقْرِضُ الرَّبَّ، وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ» (أم ١٨ : ١٧). والمزمور يقول: «طُوبَى لِلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمَسْكِينِ (لمن يتعطف على المسكين والفقير). فِي يَوْمِ الشَّرِّ (السوء) يُنَجِّيهِ الرَّبُّ» (مز ٤٠ أجبية). ولكن بالأكثر يقول: «صالِحٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذى يَتَرَأَّفُ ويُقْرِضُ... مَجْدٌ وغِنى فى بَيْتِهِ، وبِرُّهُ يَدومُ إِلَى الأَبَدِ» (مز ١١١ أجبية).

فالعطاء فى المسيح هو من فيض النعمة وحياة البر، وليس كما يظن البعض أنه مجرد عطاء مادى ومساعدات تُقدّم.. يجب أن الذى يقدم العطايا يقدمها بيد طاهرة، بقلب عابد للمسيح. وليست الصَدقة بغرض التكفير عن ذنوب، فالحسنات لا يُذهبن السيئات لأن هذا مبدأ غير مسيحى، السيئات يمحوها دم المسيح الذى يُطهِّر من كل خطية.. والاعتراف بها وغفرانها من فم المسيح بيد الكاهن وتكميل التوبة يكون فى الحياة البعيدة عن السيرة الأولى.

ناهيك لما يشوب العطايا ويلوثها من حب التفاخر والتظاهر ومدح الناس. وهذا ضد الوصية الغالية.. «مَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً (رحمة) فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ» (مت ٦ : ٣).

لذلك أقول إن من بين الأتقياء الذين عايشتهم من كان كثير العطاء فى الخفاء، يسلك سلوك القديسين الذين أنكروا ذواتهم رغم أنهم صنعوا آيات وعجائب.

+ على أن وصية العطاء غير قاصرة على ذوى الأملاك والمقتدرين، فقد رأينا فقراء ومُعدمين مُحبين للعطاء ويقدمون للرب، فوق طاقتهم بفرح لا يُعبَّر عنه. فبعض المساكين كانوا يأخذون بركة صغيرة من الكنيسة وكانوا يتصدقون منها ويُشاركون من هم أفقر منهم وأكثر احتياجاً.

كيف يكون الفقير والمعدم كريماً سخياً محباً للعطاء؟.. هذه هى نعمة المسيح التى أجزلها بكل حكمة وفطنة حتى صار أولاده كفقراء وهم يغنون كثيرين.

+ «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كو ٨ : ٩).. فقر المسيح هو الغِنىَ الذى لا يُستقصى.. فكلما زاد الإنسان التصاقاً بالمسيح، وقبل آلامه المُخلِّصة المُحيية ليحيا بها وفيها، كلما زاد غِنى الإنسان وفاضت ينابيعه من فيض نعمة المسيح مخلصنا. «أَمَا اخْتَارَ اللهُ فُقَرَاءَ هذَا الْعَالَمِ» (يع ٢ : ٥) ليخزى بهم الأغنياء.

قيل فى البستان عن أحد الآباء النسّاك العظام، إنه حل فى زمانه غلاء عظيم وقلَّ الخير. وكان فى قلايته ثلاث خبزات. وبعد غروب الشمس، شرع فى تناول طعامه، فقرع بابه سائل فقام وأعطاه

خبزة. وقبل أن يأكل قرع بابه آخر فقام وأعطاه الخبزة الثانية. وجلس ليكسر الخبزة الباقية فقرع بابه سائل آخر. فيقول البستان أنه ساورته أفكاره عما إذا أعطى آخر خبزة له فما عساه أن يفعل؟ وماذا يكون مصيره؟ ولكنه غلب أفكاره وقفز بشجاعة إيمانية وأعطى الخبزة للسائل. وظل هو بلا طعام، وقد استمر على هذه الحال يومين وهو صائم شاكراً الله. وبعد هذا ظهر له ملاك الرب وعزَّاه وقال له: من أجل عملك هذا فقد أحسن الرب إلى المنطقة كلها وأزال الغلاء. وفى ذات اليوم جاءت إلى الدير جمال مُحمَّلة بالخيرات.

+ هناك حروب كثيرة من عدو الخير ضد عمل الخير والصدقات وعمل الرحمة والإحسان. ولكن الذين عاشوا بالإيمان غلبوه بقوة الله ومؤازرة النعمة. ويكفى أن نذكر فلسى الأرملة التى مدحها الرب ذاته أنها أعطت «كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا» (مر ١٢ : ٤٤)، أما الأغنياء فقال الرب: إنهم «مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا (أعطوا)».

هذا اختبار عميق يعرفه الذين مارسوه وتنعموا به، إنه اختبار إيمانى عاشه المُعدمون بحسب الظاهر، فاختبروا قمة عناية الله بهم. لقد عاش القديس أنبا انطونيوس هذا الاختبار مدى الحياة لما تنازل طوعاً عن كل ملكيته، وألقى رجاءه بالكمال على الله، الذى اعتنى به حتى آخر أيامه على الأرض. وهكذا القديس أنبا بولا لما تنازل عن الإرث المادى الغالى وعاش ناسكاً بلا مأوى ولا كسوة ولا قوت.. كيف عاله الله سبعين سنة.. أليس هو الذى عال الشعب الإسرائيلى (٢ مليون نسمة) فى البرية أربعين سنة، «لَمْ تَبْلَ ثِيَابُهُمْ، وَلَمْ تَتَوَرَّمْ أَرْجُلُهُمْ» (نحميا ٩ : ٢١) ونعالهم لم تتهرأ؟

شفاعة السيدة العذراء والقديسين

سألنى أحدهم كيف نطلب شفاعة العذراء من أجل غفران الخطايا؟ إن الغفران فقط بدم يسوع، لأن دم يسوع يطهر من كل خطية، وأنه ليس لنا شفيع عند الآب إلا يسوع الذى هو كفَّارة لخطايانا، وليس خطايانا فقط بل خطايا كل العالم. وأنه ليس بأحد غيره الخلاص.

قلت لصديقى هذا.. كل ما تقوله حق.. ولكن دعنى أراجع معك واقعة مشوقة جداً دوَّنها الوحى الإلهى فى أيام داود النبى الملك فى الأصحاح ١٤ فى سفر صموئيل الثانى. وما حدث عندما قتل أبشالوم ابن داود أمنون أخاه انتقاماً لما فعله مع أخته من قباحة. وبعد ما قتل أبشالوم أمنون هرب من وجه داود، وهرب من الناموس الذى كان يحكم بأن القاتل يُقتل. وظل أبشالوم هارباً إلى أن جاء يوآب بامرأة حكيمة من تقوع، ولبست ثياب الترمل وجاءت إلى الملك داود كمن لها شكوى، وهى تصرخ من الظلم وتتوجع وتقول: "أَعِنْ أَيُّهَا الْمَلِكُ". فلما استفسر داود منها حكت له وضعاً مؤلماً.. إذ أنها أرملة، مات زوجها ولها ولدان، تشاجرا فى الحقل وقام أحدهما وقتل الآخر. وها كل العشيرة حولها تطلب أن تنفذ الناموس وهو قتل القاتل. فقالت المرأة.. إنها والحال كذلك ستعدم كلا الاثنين. فهى أرملة مسكينة وما الفائدة من تنفيذ الناموس فى هذه الحالة.. إنها تريد رحمة.

فقال لها الملك.. اذهبى وأنا سأدرس الأمر. فقالت.. لا. وتوسلت إليه. فقال.. سأوصى بك. فأصرَّت وصارت تستعطف. إلى أن قال لها الملك، وهو صاحب الأمر، لن يموت ابنك.

فقد جعلت المرأة القضية بين يدى الملك وبالتوسل والاستعطاف استخلصت للقاتل حكم براءة، وكلمة من فم الملك أن الولد لن يموت.

قلت لصديقى هذا.. ما رأيك؟! نعم الناموس حق وأحكامه حق وواجبة النفاذ. ولكن ما رأيك فى واضع الناموس هو صاحب الحق كل الحق فى كل أحكامه. فإن كانت هذه المرأة استطاعت بالتوسل والاستعطاف أن تصنع هذه الشفاعة فكم بالحرى أمنا العذراء..

هى تقف أمام الملك الديَّان لتشفع فى الخطاة وتستعطف قلبه نحو بنيها.. هى أم القاضى والملك الديَّان.. وهى أم الخاطئ المُدان.

وبكل تأكيد كثيرة هى شفاعتها قوية ومقبولة لدى مخلصنا.. هى تقف كأم حنون قلبها نحو كل ضعيف. وهل تؤثر خطايا الأولاد وإخفاقاتهم على عاطفة الأمومة؟! وهل يعقل أن الأم تبغض أبناءها بسبب جحودهم أو أخطائهم؟ وهل تنسى الأم رضيعها؟!

إن طبيعة الأم الجسدية وحبها وعاطفتها فى صميم الخليقة شئ مهول، لا يمكن التعبير عنه. فكم بالحرى التى صارت أم المسيح، أم الرحمة المتجسدة. من يقدر أن يصف عاطفتها وحبها نحو أولادها الخطاة أو المرضى أو المتغربين عن المسيح؟!

شفاعة القديسين:

أما من جهة أن القديسين يشفعون ويقفون أمام الله من أجل الشعب. فهذا أمر يخصنا بالدرجة الأولى إذ نشعر أننا فعلاً فى حاجة شديدة لمثل هذا الأمر. ألم يقف إبراهيم أمام الله يطلب من أجل أشر الناس فى جيله. وقال وقفت أمام المولى وأنا تراب. واستعطف الرب من أجل سدوم.. وهل يوجد أعظم من هذا؟! بل وزاد على ذلك أنه تجرأ بحسب الدالة التى له مع القدير إذ دُعى خليل الله، أن يطلب أن يرحم الرب سدوم بسبب وجود قديسين وأبرار بها. فقال: لا تهلك البار مع الأثيم. وكان إبراهيم يفتكر بحسب قلبه الطيب أنه لا يمكن أن تخلو مدينة بأكملها مثل سدوم على الأقل من خمسين باراً. ولكن كشف له القدير أنه لو وُجد خمسون باراً لا يُهلك المدينة. وظل إبراهيم يستعطف ويطلب ويتواضع أمام الله إلى آخر مرة حتى قال إبراهيم: اسمعنى هذه المرة فقط ألا يوجد عشرة أبرار. وإذ كان الجواب من الله بالنفى، صمت إبراهيم عن شفاعته فى سدوم. ونالت ما نالت من عقاب استوجبته خطايا الشذوذ والنجاسات.

ولذلك نقول إن حاجتنا إلى شفاعة القديسين شديدة وملحة للغاية. فقد استخلص أبو الآباء بفعله هذا، أن وجود الأبرار فى مدينة ينقذها من مكابدة العقاب والغضب. وهكذا يكون فى البيت والمدرسة والمصنع والجامعة والكنيسة والمدينة والقرية. إن خلت من الأبرار أدركها الفناء.

+ وهذا هو موسى الذى حمل شعبه على عنقه بحلمه وصبره وطول أناته التى وصفها الكتاب، أن الرجل موسى كان حليماً جداً أكثر من جميع الرجال الذين على وجه الأرض. لما اشتد غضب الرب على الشعب العاصى الجاحد للنعمة ،والراجع بقلبه إلى مصر مرتداً عن الذى فداه. وقف موسى أمام الله من أجل هذا الشعب الصُلب الرقبة وقال الرب لموسى: دعنى أفنيهم وأجعلك لأمة أعظم. فتشفع موسى فى الشعب وحجب الغضب الإلهى. وبما له من دالة تكلم مع الله. قال للرب إن تفعل هذا امح اسمى من كتابك الذى كتبت. وأرجع الرب عن حمو غضبه.

ما أحوجنا نحن الخطاة إلى من يقف لأجلنا أمام الله.

+ قال الرب لأرميا النبى: لا تطلب من أجل هذا الشعب. ولا ترفع صلاة لأجلهم. وقال «وَإِنْ وَقَفَ مُوسَى وَصَمُوئِيلُ أَمَامِي لاَ تَكُونُ نَفْسِي نَحْوَ هذَا الشَّعْبِ». أرأيت هذا الاقتدار لطلبات الأبرار. ألم يقل يعقوب الرسول إن طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها.

+ إننا لا ننسى أن الآية الأولى التى صنعها ربنا يسوع فى عرس قانا الجليل كانت بتوسلات وشفاعة أمنا العذراء القديسة. فهى كما يبدو من المكتوب أنها رأت أهل العرس وقد صاروا فى ورطة بسبب نفاذ الخمر، ربما لكثرة المدعوين أو رقة حالهم كفقراء، وقد يتعكر صفو الجميع وينقلب الفرح إلى غم، ويُلام منهم من يُلام ويقع فى الإحراج ذات العريس وعائلته.. وقد يترتب على ذلك ما لا تُحمد عقباه. رأت الأم كل ذلك وبروحها النقية أدركت الأمر قبل أن يدركه أحد، وبحنانها الفائق تقدمت دون أن يسألها أحد، إذ هى الأم للعريس الحقيقى مصدر الفرح. ذهبت إليه وقالت ليس لهم خمر. ثلاث كلمات لا غير.. فهى فى الإنجيل كله صاحبة الكلمات القليلة، ولكنها صاحبة الدالة التى تفوق دالة الملائكة والأنبياء ورؤساء الآباء. طرحت طلبتها وسؤالها من أجل الذين ليس لهم أمام ابنها، الذى له الكل فى الكل. ابنها افتقر وهو الغنى بل هو الغِنى ذاته. ولا أحد يعرف سر إخلائه إلا هى. لذلك اتجهت إليه ليخلص الذين كانوا فى ورطة العوز والفقر. فهى كانت ومازالت تشفع فى المعوزين والمعدومين. فإن قالت ليس لهم خمر، فهى قائمة دائماً مازالت تطلب إليه من جهة كل من ليس لهم. فها أناس منا ليس لهم حب، بل افتقروا جداً فى الجحود والعداء. وآخرون ليس لهم فرح بل لهم النكد والحزن. وآخرون ليس لهم قداسة بل طُرحوا أسرى الخطايا. وافتقروا جداً. وغيرهم ليس لهم اتضاع بل عدموه بحياة الاعتداد بالذات وفقر الكبرياء. وغيرهم ليس لهم سلام. وما أكثر من صاروا ليس لهم، وأعوزهم مجد الرب.

وها هى واقفة أمام ابنها تطلب فتُجاب وتسأل ولا يرد طلبتها. ورغم أن استعلان صليبه لم يكن قد حان بعد بحسب كلامه لها، إلا أنه صنع الآية وأظهر مجده. ويا للعجب.. قد كان من الممكن أن يعطيهم ما يكفى، وما نقص عنهم. ولكن قال: املأوا الأجران.. فملؤها إلى ما فوق.. إلى أقصى اتساعها بدون نقص، ٣٦ صفيحة ماء.. ما هذا الفيض؟!

ألا نذكر ما قاله فيلبس من جهة الخمسة آلاف، إنه لا يكفيهم بمئتى دينار خبز لكى يأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً. غنى المسيح الذى لا يُستقصى يتعارض تماماً مع الشح والقلة فهو حين يُعطى بسخائه الإلهى. «فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا جَمِيعًا. ثُمَّ رُفِعَ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ قُفَّةً» (لو ٩ :

١٧). لذلك فاض سخاؤه الإلهى للارتواء والشبع وسد الإعواز للغنى والفيض. وبالطبع الأمر الجوهرى لا يخص الخيرات الزمنية ولكن غنى المسيح أبدىّ يختص بالدرجة الأولى الحياة الأبدية.

+ ألم يُصلِّ أيوب لأجل أصحابه لكى يرفع الرب عنهم غضبه. لأن الرب قال: «قَدِ احْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلاَ صَاحِبَيْكَ، لأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِيَّ الصَّوَابَ كَعَبْدِي أَيُّوبَ» (أي ٤٢ : ٧). فهم إن كانوا يظنون أنهم يدافعون عن الله وأحكامه وعدله، لكنهم لم ينالوا الرضى لأن حياتهم لم تكن على مستوى التقوى والعشرة الحقيقية، بل كلام فى كلام. فأمرهم أن يأخذوا «سَبْعَةَ ثِيرَانٍ وَسَبْعَةَ كِبَاشٍ وَاذْهَبُوا إِلَى عَبْدِي أَيُّوبَ، وَأَصْعِدُوا مُحْرَقَةً لأَجْلِ أَنْفُسِكُمْ، وَعَبْدِي أَيُّوبُ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِكُمْ، لأَنِّي أَرْفَعُ وَجْهَهُ لِئَلاَّ أَصْنَعَ مَعَكُمْ حَسَبَ حَمَاقَتِكُمْ".

هذه هى معاملات الله نحو قديسيه.. ومختاريه فى كل الأجيال. لقد بدا أن أيوب يجترئ فى الكلام، وظنوه يتجاوز الحدود فى الحديث. ولكن تقواه وصلته العميقة مع الله كانت تشفع له فلم يحسب الرب عليه ما تفوه به. بل عاتبه وكشف له المستورات ورده إلى اتضاعه. وقال للرب: «بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ، وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي. لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ» (أيو ٤٢ : ٥ ، ٦).

هذه الدالة التى للقديسين قد ظهرت بأجلى بيان فى نهاية سفر أيوب. ولولا صلاة أيوب من أجل أصحابه لنزل بهم غضب الله. فعلاً طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها.

إنجيل المرأة الخاطئة

رُبَّ سائل: ألم يوجد فى المدينة خطاة غير هذه المرأة؟ لأن الكتاب يقول: «امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً» (لو ٧ : ٣٦ – ٥٠).

الواقع أن الخطاة فى تلك المدينة أو غيرها من المدن لا يمكن حصرهم لأنه «أَغْلَقَ عَلَى الْكُلِّ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ... أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ» (غل ٣ : ٢٢، رو ٣ : ١٠). بل أن العكس هو الصحيح إن وُجِدَ أبرار فى مدينة فهم الأقلية المعدودة.

ولكن من حرّك قلب هذه المرأة الخاطئة للتوبة؟ والجواب: إن التحريض على التوبة وتحريك الضمير لترك حياة الخطية هو من الله «الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ» (١تى ٢ : ٤)، وهو مخلص البشر.

إذن هل اختار الرب هذه المرأة ليخصها بهذه النعمة إذ يحرك ضميرها ويثقله من جهة حياة النجاسة والفجور؟ وهل إليها وحدها بلغ هذا الصوت الإلهى؟ ولماذا؟

والواقع أن رسالة الله ودعوته للجميع بلا تمييز ولا تفريق. ولكننا نخلص إلى القول إن وراء هذه المرأة الخاطئة سر.. هو سر القبول، وسر الاستجابة.. إذ سمعت الصوت داخلها يحرك قلبها ويوخز ضميرها.. فلبّت للحال صوت الداعى. واستجابت له بكل مشاعرها وتحركت لفورها بخضوع عملى لتلبى متطلبات الحركة الإلهية داخل القلب.

وكم من مرات لا تقع تحت حصر يصير هذا الصوت، ينادى فى قفار الأرض وجدب العالم المظلم «تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ» (مت ٤ : ١٧). ويختلف الناس اختلافاً بيّنا من جهة الاستجابة والتجاوب.

فمن سامع سريع الانفعال ثم فى لحظة يخبو الصوت ويتلاشى، ومن مستهتر لا يُعير الصوت التفاتاً، ومن غير مصدق ولا مؤمن بهذا الصوت إنما يعزوه إلى غير الله الموجود، ومن يائس لكثرة السقوط وارتياد الطرق المعوجة.

مئات بل ملايين السامعين والتمايز بين واحد وآخر شئ مهول حقاً. وبين الملايين الكثيرة يوجد من يلين قلبه عند سماع أول هاتف للخير وأول شعاع لفجر القيامة.. ومن هؤلاء كانت هذه المرأة الخاطئة، فلما سمعت جاءت إلى من ناداها. ولم تكن تجرؤ أن تنظر إلى عينه، فهو فاحص القلوب ومختبر الكلى. ولم تكن تستطيع أن تريه وجهها وقد غطاه خزى الخطايا. كان الذى يحركها فى الداخل

شئ لا يُقاوم، وحنينها إلى الحياة الأفضل كانت تُزكيه هذه الشعلة البسيطة من نار الروح الذى بدأ يشتعل قليلاً قليلاً فى داخلها.

تُرى ماذا سيقول؟ بل ماذا عساها أن تقول؟

فإن قال وكشف ما هو مستور فى قبر هذا القلب المسكين.. فسوف يزلزل صوته السماء والأرض.. وأساسات المسكونة. فكم بالحرى قلب ملوث بالخطايا.

وإن نظر فتذوب الجبال وتُدخن، لأن السماء غير طاهرة قدام عينيه.. «وَإِلَى مَلاَئِكَتِهِ يَنْسِبُ حَمَاقَةً» (أى ٤ : ١٨).

فمن الأجدر أن تتكلم هى، وماذا عساها أن تقول إن استجمعت شجاعتها وحزمت كل ما تبقى لها من قوة بددتها الخطايا.. من أين تجد كلاماً تضعه فى شفتيها.. من يعطيها كلاماً كقول هوشع «خُذُوا مَعَكُمْ كَلاَمًا وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ» (١٤ : ٢). تُرى هل تحتاج إلى كلمات داود أو صلوات منسّى التائب؟ وهل تحتاج إلى من يعمل فى فكرها لترتيب الكلام، حتى تجد نعمة لدى القدير؟ إن ملايين الكلمات لا تكفى ولا تفى!

لذا جاءت من ورائه.. وهل تحسب أنه له وراء وقدام؟ لأجل تجسده إذ صار إنساناً، صار هكذا، غير المرئى صار مرئياً وغير الزمنى صار تحت الزمن. هكذا عرفته إذ صار قريباً من الخطاة بل محب للعشارين والخطاة.

فلما وقعت عند قدميه.. وصارت إلى التراب فى المذلة والاتضاع.. انفجرت ينابيع الماء من الداخل كقول الرب للسامرية، وهى أيضاً المرأة التى تمتعت بالغفران قبل غيرها. لذلك لما عجزت عن الكلام باللسان تكلمت العينان بالدموع.

جاءت من ورائه باكية:

للدموع فعل عجيب حقاً لدى أصحاب القلوب الطيبة وأصحاب المشاعر الرقيقة. فكم بالحرى تكون أمام مخلصنا ينبوع الرحمة والحنان؟ فهى تستدر عطفه الإلهى كما هو مكتوب: «كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ»، لقد قال الرب فى سفر النشيد: «حَوِّلِي عَنِّي عَيْنَيْكِ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي» (نش ٦ : ٥).

اقتربت الباكية من قدمى المخلص.. سبقتها دموعها تتساقط بغزارة، وبجرأة لمست قدميه، وهى تعلم فى نفسها مقدار نجاستها. شعرت لوقتها نفس شعور نازفة الدم.. وقف نزيف دمها.. زال المرض.. تبددت النجاسة والشعور بالنجاسة. فهل تقف الظلمة إذا غشاها النور الإلهى؟ لقد لمست الخلاص،

لمست الحياة التى أُظهرت، الحياة المتجسدة فى شخص يسوع. حل فى قلبها فى الحال سلام الله لما مسّت قدمى الذى صالح الخطاة مع الآب. «لاَ سَلاَمَ، قَالَ الرَّبُّ لِلأَشْرَارِ» (أش ٤٨ : ٢٢).

+ لم يحرك الرب قدميه أو يمنعهما.. ترك لها قدميه المزمعتين أن تتسمرا على الصليب بلا حراك لتدفع ثمن خطايا العالم كله.

لقد بخل سمعان الفريسى بالماء لغسل قدمى المخلص.. حسناً صنع دون أن يدرى فقدمى المخلص ليستا بحاجة لغسل الماء كباقى البشر.. هو غاسل الأوزار والخطايا عن الأقدام كما فعل مع الرسل ومع كل أجيال الكنيسة.

+ كم الدموع لغسيل الرجلين من يقدر أن يصفه أو يقدره؟ هل يُكال بمكيال أو يقدر بمقدار؟ ما قدره سمعان ولا المتكئين، بل حسبوه مياهاً تُسكب على الأرض. لكن قابِل الخطاة ومخلص الأثمة هو الذى ثمَّن الدموع وعظَّمها.

وَكَانَتْ تُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ:

تُرى من دلّكِ إلى ذلك؟ ومن علّمكِ؟ القبلات للفم وللوجنتين. ولكنك ألقيتِ بنفسك على الأرض إذ حسبتِ نفسك خاطئة لا تستحقين القيام أمامه، فعكفتِ على تقبيل قدميه. فلما استنشقتِ رائحة الحياة الأبدية لم تكفِ عن فعل ذلك. سكبتِ الدمع فغسلتِ القدمين، وعوضاً عن المنشفة للتجفيف قدمتِ شعر رأسك، ثم سكبتِ طيبك المخبأ تحت إزارك، فامتلأ البيت من عبير التوبة الحقيقية، التى اشتمها الله قبل البشر.

يا للعجب! كل ما بِعتيه للخطية وما بذلتيه للتلذذ والخلاعة.. استرددتيه مضاعفاً أضعافاً أبدية.. فالدموع وعواطف الحب والقبلات التى ألهبت الجسد بالشهوات، وعطر الطيب وشعر الرأس التى أُستخدمت للهلاك، عندما قدمتيها ذبيحة حب حقيقى على مذبح قدمى يسوع.. نزعتِ عنها كل شوائب الجسد وعار السلوك النجس، وكأنها أُلقيت فى أتون النار، فاحترقت الخطايا وخرجت العطايا كالذهب المصفّى.

فيا جميع خطاة الأرض، تعالوا.. تعلموا اقتناء الخلاص، وتعجبوا كيف أن المرأة الخاطئة فى المدينة صارت أيقونة المرأة التائبة فى الكنيسة.

سِمْعَانُ الْفَرِّيسِيِّ

عجبى من مسلك هذا الفريسى الأعمى، الذى نسى تطهير خطاياه، مبرراً ذاته وناظراً إلى المرأة الخاطئة.. وعجبى أننا كثيراً ما تصرفنا تصرفه وحكمنا حكمه وبررنا أنفسنا! قال الفريسى فى نفسه، لم

يجسر أن يكلم الرب علانية فأمره مكشوف. ولكن المطّلع على الخفايا وفاحص القلوب كلّمه علانية مجيباً على أفكاره لأجل منفعتنا ولتعليمنا.

فإن كنا نصدر الأحكام على الآخرين وندينهم، فنحن بالأولى يليق بنا أن نحكم على أنفسنا وندين أنفسنا. وإن افتكرنا بأننا مدينون بالقليل بينما غيرنا مدينون بالكثير، فقد أخطأنا إذ لم نحسب حساب حب الآخرين الكبير.

وإن كنا عجزنا عن أن نوفى الدين الذى علينا فلنسرع بالتوبة. وبدل المتكأ العالى فلنلق بأنفسنا عند قدمى يسوع القادر أن يسد الديون عنا. ولنبكِ بحرقة قلب ونبل قدميه بدموعنا ونقبّل قدميه اللتان أعتقتانا من طريق الضلالة..

كفى دينونة للآخرين.. وكفى حكم على الناس.

+ أما قول الرب كله فكان فى صف المرأة المبررة التائبة. فالمسيح دائماً فى صف الراجعين إليه، يدفع عنهم كلام الناس وأحكام الناس ودينونة الناس.

طوباكِ أيتها المرأة حين سمعتِ صوت الرب إلهك أنكِ أحببتِ كثيراً.. طوبى للدموع التى طهّرت عينيك وقبلاتك التى قدّست شفتيكِ.. ومبارك هو طيبك الذى استمد معناه من طيب الروح القدس، المنبثق من الآب، الحال على رأس المسيح ومنسكب على القدمين.

طوباكِ لما سمعتِ صوت الرب مغفورة لكِ خطاياكِ. لقد أدركتِ الفرح الأبدى، إذ محا الرب عنكِ صك خطاياكِ.. طوباكِ لما أظهرك للعالم كله، حاصلة على سلامه الإلهى وأرسلك تكرزين بالتوبة والخلاص « اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ».

الضمير المسيحى

الضمير فى الإنسان هو وازع الخير الذى يدفع الإنسان، أى إنسان، نحو الخير والرحمة والشفقة نحو الأصغر والأضعف، ويُحفّز الإنسان ويدفعه لعمل الخير نحو الغير. وهو فى نفس الوقت يبكت الإنسان حينما يرتكب المعاصى، أو يجنح نحو عمل الشر، ويوخزه لعله يسمع فيرجع عن فعله.

فعمل الضمير فى الإنسان إيجابى نحو عمل الخير وسلبى نحو الشر. ورغم أن الخليقة فسدت بالخطية ودخول الموت من جراء المخالفة والانفصال عن الله مصدر الحياة والصلاح، إلا أن بقايا مجد الخليقة قبل الفساد كائن فى الإنسان كمثل ما تجد فى حطام أيقونة فائقة الجمال، حتى الأجزاء الصغيرة منها تحمل جمالاً وبهاء.

هكذا تجد الضمير فى الإنسان مهما تدنت حياته حتى أسفل المراحل، من حين إلى حين يومض بالنور فى أحلك الظلمات. فالقتلة والسارقون والزناة لا تخلو حياتهم من ومضات الضمير، رغم ما اقترفوه من فظائع بسبب تحجر القلب وطمس معالم الخير. فأنت تجد القاتل فى معاملة أطفاله الصغار شئ مختلف تماماً عن سيرته فى العنف الذى بلغ القتل. فلا تجده مع طفله إلا رحيماً شفوقاً حانياً عليه.

فالضمير فى الإنسان لا يموت، وإن كان أعتى الخطاة والمجرمين يبدو أنهم أماتوا الضمير وأنهوا عليه. فلو خلد الإنسان إلى نفسه ولو إلى دقائق معدودة.. ورجع ناظراً إلى داخله لتحرك ضميره الذى يظن أنه مات.

فى بداية الحياة.. فى الطفولة وبساطتها وبراءتها، يكون صوت الضمير فى الإنسان واضحاً عالياً من جهة دافع الخير أو من جهة التحذير والتبكيت على فعل الشر. فإن وَعَىَ الإنسان هذا الهاتف الداخلى وانحاز إليه وأطاعه فإن صوت الضمير يقوى ويزيد. وعلى العكس إن أعطى الإنسان لصوت الضمير أذناً لا تسمع، فإن صوته ينخفض ويخبو يوماً بعد يوم.

صوت الضمير يحذر وينذر، ولكنه لا يجبر الإنسان على طاعته، وإن أسكته الإنسان بالعناد يسكت. قُل إنه صوت الله فى الإنسان لأن الله لا يشاء موت الخطاة ولا يسر بموت الإنسان فى خطيئته. ولأن الله جل اسمه، خلق الإنسان، على صورته وأعطاه فى داخله إرادة حرة فى الاختيار. لذلك فهذا الصوت الداخلى لا يُفقد الإنسان حريته. بل على العكس يصير نصوحاً للإنسان ليكون أفضل ويطلب الخير والصلاح.

ماذا عن الضمير فى الإنسان المسيحى؟

فى الإيمان المسيحى، نعلم أن طبيعتنا التى فسدت وبليت بالخطية فى الإنسان الأول آدم أبونا، جددها المسيح (آدم الثانى) وأقامها وخلقها خليقة جديدة. وهذا التجديد شمل كيان الإنسان بكل ملكاته وإمكانياته.. نفساً وجسداً وروحاً «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧).

فقُل إن الضمير الطبيعى تجدد بالروح القدس كخليقة جديدة مسنوداً بنعمة سمائية. فإن كانت حساسية الضمير وصحوته تختلف من إنسان لآخر، فما يوافق عليه ضمير الإنسان ربما لا يسمح به ضمير آخر وهكذا.

لذلك نقول إن تقديس الضمير لدى الإنسان المسيحى أعطاه فطنة وبصيرة وحساسية روحية، تختلف تماماً وتعلو على ناموس الضمير الطبيعى. فالمقاييس والمعايير مختلفة جداً بين ما هو حسب الطبيعة وما هو حسب الروح. إذن الضمير المسيحى، وهو مؤازر بروح الله القدوس فإنه يسعى أن يوّصل الإنسان أن يشهد للحق. ومعياره الذى يقيس عليه هو وصايا يسوع.

لذلك بمقدار سمو الوصايا المسيحية وعلوها على الناموس الطبيعى العامل فى الإنسان الطبيعى، هكذا يتعالى الضمير المسيحى الساعى إلى الكمال. الدارس لحياة الآباء مثلاً يقابل علواً شاهقاً لضمير صالح مرهف حساس يدعو إلى العجب والدهش.. قيل مثلاً إن أحد الآباء فى برية الإسقيط كان يعمل فى الحصاد وإذ أراد أن يفرك سنبلة من سنابل القمح ليأكلها.. استأذن صاحب الحقل، فتعجب الرجل وقال: يا أبتَ الحقل كله بين يديك وتستأذنى؟ ثم يعلق كتاب البستان ويقول: إلى هذا الحد كان هذا الأب حريصاً مدققاً.

تدريب الضمير:

قال القديس بولس الرسول، وهو يحتج أمام فليكس الوالى: «أُدَرِّبُ نَفْسِي لِيَكُونَ لِي دَائِمًا ضَمِيرٌ بِلاَ عَثْرَةٍ مِنْ نَحْوِ اللهِ وَالنَّاسِ» (أع ٢٤ : ١٦). فإن كان يقال إن التدريب حتى للحيوانات الأعاجم أخضع طبعهم الوحشى فأنت ترى كم تدربت حتى الوحوش والأسود والنمور، وحتى الحيوانات البحرية والطيور.

فكم بالحرى إذا تدرب الإنسان المسيحى لكى يكون له ضمير صالح بلا عثرة قدام الله والناس. بكل تأكيد قد أثمر جهاد الآباء فى الحصول على ضمير مقدس روحى حساس وصالح. وهذا دفع حياتهم إلى السموات العليا وهم بعد عائشون فى الجسد بيننا. فضربوا المثل فى الحياة والطهارة، والسلوك،

والكلام، والصمت، والمعاملات مع كل أطياف الناس. وكانت سيرتهم التى سطروها وعطروا العالم بها.. كان هذا الضمير المدرب والمسنود بروح الله هو خلف كل واعز لعمل الصلاح والخير.

ولكن كيف يدرب الإنسان نفسه لأجل أن يكون له ضمير بلا عثرة؟ «إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ» (عب ٤ : ٧).. أى الانصياع للطاعة وإخلاء الذات، والخضوع الفورى لصوت الضمير.

+ أحياناً ما يعاند الإنسان أو لا يعطى اهتماماً للصوت الداخلى. هنا التدريب يعنى الالتفات السريع لصوت المتكلم، وعدم التسويف فى الاستجابة.

+ التدريب على التقاط الإلهامات مهما كانت صغيرة، كمن يرهف السمع للهمس. وهكذا تتربى فى الإنسان حاسة التقاط صوت الروح وإلهاماته التى ينطق بها فى الضمير.

+ يتدرب الإنسان أن يخضع للتبكيت دون تخفيف أو تهوين، ويستوفى حق الروح فى اللوم متى كان الإنسان ملوماً، ولا يلتمس الأعذار بل يخضع للتأديب ولا يبرر ذاته. يقول الآباء: «جيد للإنسان أن يأتى بالملامة على نفسه فى كل شئ».

+ بسبب الضمير الصالح الذى بلا عثرة قدام الله والناس، صار أمر إرضاء الله هدفاً لحياة الآباء.. فأرضوه واسترضوا وجهه، وحفظوا كلامه، وداموا فى حبه، وأخلصوا فى عبادته ولم يتهاونوا.

جعلوا الرب أمامهم فى كل حين.. صار حاضراً معهم فى كل مكان وزمان.. طلبوا وجهه وطلبوا أن يسكنوا فى بيته ويتفرسوا فى هيكله.

أما من جهة الناس، فالضمير المسيحى قاد مسيرتهم فى سلوك روحى. فحسب طاقتهم سالموا جميع الناس. وصار قانونهم أنه «إِنْ كَانَ طَعَامٌ يُعْثِرُ أَخِي فَلَنْ آكُلَ لَحْمًا إِلَى الأَبَدِ (طول حياتى)» (١كو ٨ : ١٣). وبحسب الضمير المسيحى قدموا بعضهم بعضاً فى الكرامة ورضوا بالمتكأ الأخير. وسعوا فى إثر الصلح والسلام مهما كلفهم الأمر. وحفظوا المحبة ولو خسروا كل شئ سواها.

وفعلاً صار الضمير المسيحى هو الدافع للسعى وهو الحارس من الهفوات، وهو الضامن للاستمرار بنعمة الروح القدس وفعله لبنيان ملكوت الله.

+ قال أحد الآباء: «إذا تحرك فيك فكر صالح فلا تنم قبل أن تكمله».

+ قيل عن أحد الآباء إنه فى وقت نياحته رأوا وجهه منيراً ، فسألوه. فأجاب: أنه من يوم دخوله الدير لم يدن أحداً، ولم يحكم على أحد، فهو ذاهب ليلتقى المسيح الذى قال: «وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا» (لو ٦ : ٣٧). إلى هذا الحد كان هذا الأب يقظاً بضمير نقى نحو الجميع.. طوبى لأنقياء القلب.

اسلكوا بالتدقيق:

الضمير هو حارس السلوك بالتدقيق فى حياة الإنسان المسيحى، بعيداً عن الدمدمة والوساوس والتشكك. فالتدقيق يشمل معانى كثيرة تدخل فى تفاصيل الحياة، مثل عدم الاستهتار بالأمور التى تبدو صغيرة «فَالأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ هو أَيْضًا أَمِينٌ فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ هو بالضرورة ظَالِمٌ فِي الْكَثِيرِ» (لو ١٦ : ١٠).

فما معنى ما قاله الرسول أن يكون له ضمير صالح من جهة الله والناس؟

أولاً: من جهة الله، يكون له ضمير يخاف الله، يرضى الله، يحفظ وصاياه، يعمل حسابه فى كل تصرف. وهذا ما عبّر عنه القديس يوحنا بقوله: «لأَنَّهُ إِنْ لاَمَتْنَا قُلُوبُنَا فَاللهُ أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ» (يو ٣ : ٢٠).

+ فى مسألة أكل ما ذُبح للأوثان تكلم القديس بولس إلى الإنسان الذى يقول إنه له ضمير قوى، أى لا يتشكك عندما يأكل عالماً أنه لا يوجد إله آخر فى العالم، فكان يشارك فى الأكل مما ذُبح للأوثان غير عابئ بالآخرين الذين كانوا يحسبون ذلك كمشاركة فى عبادة الأوثان وكانوا يُعثرون..

هنا قال بولس الرسول: أنت لك ضمير قوى لا يتأذى، ولكن ما بالك وأخوك الذى ينظر إليك؟

وصحح الرسول بولس المفهوم الخاطئ لحرية الضمير حتى إن الإنسان المسيحى يكون فى استعداد أن يضحى من أجل الآخر «لو كَانَ أَكْلُ اللَحْمٌ يُعْثِرُ أَخِي ما أَكُلَت لَحْمًا كل أيام حياتى».

وهكذا أظهر بوضوح جمال الضمير المسيحى المستعد دائماً للبذل والتضحية بعيداً عن الأنانية وإرضاء الذات.

«أَقُولُ الصِّدْقَ فِي الْمَسِيحِ، لاَ أَكْذِبُ، وَضَمِيرِي شَاهِدٌ لِي بِالرُّوحِ الْقُدُسِ إِنَّ لِي حُزْنًا عَظِيمًا وَوَجَعًا فِي قَلْبِي لاَ يَنْقَطِعُ» (رو ٩ : ١، ٢). هكذا كتب القديس بولس الرسول عندما تكلم عن إحساسه الداخلى نحو خلاص بنى إسرائيل وقبولهم الإيمان بالمسيح.

فقوله هذا الذى بلغ غاية السمو والغيرة نحو بنى جنسه، يسنده شهادة ضمير مؤازر بروح الله القدوس. إن الأمر ليس مجرد كلام أو شعارات، بل هو حق وصدق. وما أجمل وأجلّ هذا الأمر أن ما يضمره الإنسان يتوافق تماماً ما يتكلم به. وهذا دليل ما بعده دليل على انحياز الكيان كله للحق فى السلوك بالحق والكلام بالحق.

وهذا هو صدق الحياة المسيحية التى لا تعرف التلوُّن ولا المراوغة.

نهاية الأمر ممكن أن نقول إن الضمير المسيحى المؤازر والمسنود من الروح القدس، يصير فى الحياة العملية كرقيب على التصرفات، ولا سيما عندما يتدرب ويرتقى فى البصيرة الروحية والحساسية والتمييز الذى سماه الآباء الإفراز وعلّوا قيمته على جميع الفضائل.

نقول إنه فى هذه الحالة يقف الضمير كحارس يقظ على كل حركات الإنسان، إن كان بالفعل أو بالقول، من جهة الله فى العبادة والخدمة وحفظ الوصايا الإلهية. أو من جهة الناس فى المعاملات وما يتطلبه الروح من جهة جميع الناس: الأحباء والأعداء، القريبين والبعيدين.. وكيف يجب أن ينضبط السلوك نحو كل أحد.

الحكم الروحى والنصيح الصادق هو الضمير المسيحى. وكأنه صوت الروح الذى يقول: «أُعَلِّمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ» (مز ٣٢ : ٨).

خلاصة الأمر نجد أن الضمير المسيحى المُجدد بالنعمة والمؤازر بالروح القدس، هو القاعدة الجوّانية التى تخرج منها مخارج الحياة.. فيقال إن الإنسان نوَى فى قلبه أو أضمر أن يعمل كذا وكذا. وهذا يسبق خروج الأعمال إلى حيز التنفيذ. لذلك يقال: الضمير الصالح كنية عن القلب الذى تكلم عنه الرب فى الإنجيل أن «اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ... وَلاَ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تُثْمِرُ ثَمَرًا رَدِيًّا» (لو ٦ : ٤٥، ٤٣) والعكس.

وهذا يجعل الضمير المسيحى كالجذور للشجرة، وهى عميقة مخفية فى الإنسان الباطن. وعلى هذا فإن صار تلف فى الثمار، أى فى الأفعال، فالعيب يكون قد أصاب الجذور قبل كل شئ. والتوبة الحقيقية هى إصلاح حال الجذور. يعزق حولها أى يتعمق ويضع السماد. وينقّى الحجارة ويطرحها ويعطى الجذور مجالاً وفرصاً للنمو بلا عائق. ويسقيها بماء الدموع ويتعهدها حتى تعود إلى حياتها الطبيعية بنعمة الله.